ISSN(Print): 1813-4521 OnLine ISSN:2663-7502
Journal Of the Iraqia University
available online at: https://www.mabdaa.edu.iq

دراسة العلاقة بين حادثة الإسراء والمعراج ومفهوم السفر عبر الزمن: مقاربة بين-تخصصية تجمع العلوم الإسلامية والفيزياء النظرية

م.م. نور عبدالواحد شرامه الخفاجي
المشرف :ا.د. غلام حسين اعرابى
الاستاذ المساعد :ا.د. سيدرضا مودب
جامعة قم كلية الإلهيات والمعارف الاسلامية قسم علوم القران والحديث

Exploring the Relationship between Al-Isra' and Al-Mi'raj and the Concept of Time Travel: An Interdisciplinary Study Bridging Islamic Sciences and Theoretical Physics

Asst. Lect. Noor Abdulwahid Shrama Al-Khafaji
Nooralkhafaji64@gmail.com
Supervisor
Prof. Dr. Gholam Hossein Arabi
g.arabi@qom.ac.ir
Co-Supervisor / Associate Professor
Prof. Dr. Seyed Reza Moaddab
Sr-moaddab@qom.ac.ir
Department of Qur'anic Sciences and Hadith Studies
Faculty of Theology and Islamic Studies
University of Qom

ا. الملخص

المقدمة: يُعَدّ السفر عبر الزمن من المفاهيم الأساسِيّة في الفيزياء النظريّة، إذ يُصوِّر إمكان تغيّر تجربة الزمن في ظلّ شروطٍ مخصوصة. كما تقدِّم حادثةُ الإسراء والمعراج روايةً عن انضغاط الزمن وقطع مراتب السماوات في زمنٍ قصير .الهدف: تتناولُ هذه الدراسة، برؤيةٍ بينيّة التخصّصات، نسبةَ العلاقة بين مفهوم السفر عبر الزمن في الفيزياء الحديثة وحادثة الإسراء والمعراج، بغيةَ تقديم فهمٍ معاصرٍ لهذه الواقعة ضمن أفق «المحاذاة/التوازي الدلالي» من غيرِ اختزال المعجزة في آليّاتٍ طبيعيّة.المنهج: يستند البحثُ إلى ضوابطِ الإعجاز العلمي: التمييز بين «التفسير العلمي» و«دعوى الإعجاز»، اجتناب الجزم، عدم حصر معنى الآيات في نموذجٍ علميّ واحد، وصونُ حدود الغيب. كما جرى استخدامُ تحليلٍ مقارنٍ بين مفاهيم الفيزياء النظريّة والمصادر التفسيرية–الحديثية.النتائج: أوّلًا، تُقارَب روايةُ «اختلاف إدراك الزمن» في المعراج بمفهوم اتّساع الزمن في النسبيّة الخاصّة. ثانيًا، الوصلُ المباشر للمعراج بالثقوب الدودية غيرُ مُسوَّغ علميًّا ولا كلاميًّا. ثالثًا، يسهمُ الاستخدامُ الرشيدُ للمفاهيم الفيزيائيّة في البيان العقلانيّ للإيمان ويَحُولُ دون الادّعاءات غير القابلة للإثبات.الخلاصة: ينبغي للبحوث اللاحقة التفريقُ بين «الزمن الإدراكي» و«زمن الإحداثيّات»، وإعادةُ قراءة الروايات اللغويّة للمعراج، ووضعُ دليلٍ/لائحةٍ منهجيّة لتطابقاتٍ علميّةٍ منضبطة؛ كي يظلّ الفهمُ المعاصرُ للمعراج وفيًّا للحقيقة الإيمانيّة وأكثرَ معنًى

الكلمات المفتاحية: الإسراء والمعراج؛ السفر عبر الزمن؛ اتّساع الزمن؛ الزمكان؛ الثقوب الدودية؛ الإعجاز العلمي؛ سدرة المنتهى.

Abstract

Introduction: Time travel is considered one of the fundamental concepts in theoretical physics, as it describes the possibility of experiencing time differently under specific conditions. Likewise, the event of *Al-Isra' and Al-Mi'raj* presents a narrative of temporal compression and the traversal of the celestial realms within a remarkably short period.Objective: This study adopts an interdisciplinary approach to examine the relationship between the concept of time travel in modern physics and the event of *Al-Isra' and Al-Mi'raj*. It seeks to offer a contemporary understanding of this event within the framework of semantic correspondence and parallelism, without reducing the miraculous nature of the event to naturalistic mechanisms.Methodology: The research is grounded in the methodological principles of scientific miracle studies (*I'jaz 'Ilmi*), including distinguishing between scientific interpretation and claims of scientific miraculousness, avoiding definitive assertions, refraining from restricting Qur'anic meanings to a single scientific model, and preserving the boundaries of the unseen (*al-ghayb*). A comparative analysis was conducted between concepts in theoretical physics and relevant exegetical and hadith sources.Results: First, the narrative concerning the altered perception of time during the Mi'raj may be compared with the concept of time dilation in Special Relativity. Second, directly associating the Mi'raj with wormholes is neither scientifically nor theologically justified. Third, the prudent use of physical concepts contributes to a rational articulation of faith while preventing unfounded and unverifiable claims.Conclusion: Future studies should distinguish between perceptual time and coordinate time, reexamine the linguistic dimensions of the Mi'raj narratives, and develop a methodological framework for disciplined scientific correspondences. Such efforts would allow contemporary interpretations of the Mi'raj to remain faithful to religious truth while enhancing their intellectual significance.Keywords: Al-Isra' and Al-Mi'raj; Time Travel; Time Dilation; Space-Time; Wormholes; Scientific Miracles (*I'jaz 'Ilmi*); Sidrat al-Muntaha

٢. المقدمة

يسعى هذا البحثُ، برؤيةٍ بين–تخصصيّة، إلى تقصّي نسبة العلاقة بين حادثة الإسراء والمعراج ومفهوم «السفر عبر الزمن». إنَّ وقوع الإسراء مُصرَّحٌ به في القرآن الكريم، وأمّا المعراج ففي السنّة الإسلاميّة يُعدّ معجزةً إلهيّة (القرآن الكريم، الإسراء: ١). وعلى الصعيد الروائي، فقد أثبتتِ الرواياتُ وتخريجاتُ المحدّثين أصلَ الحادثة وبعضَ جزئيّاتها (الألباني، ٢٠٠٨)ومن جهة العلم، تفهمُ الفيزياءُ الحديثةُ «الزمن» بوصفه مرتبطًا على نحوٍ لا ينفصم بـ«المكان» ضمن «الزمكان»، وتُظهر أنَّ معدّلَ جريان الزمن يتغيّر عند السرعات القريبة من سرعة الضوء وفي الحقولِ الثقاليّة الشديدة (هوكينغ، ٢٠١٨). وعليه، فالسؤالُ المحوريّ للمقالة هو: هل يمكن (مع الالتزام بضوابط الإعجاز العلمي) إقامةُ نوعٍ من «المحاذاة الدلاليّة» بين «الوصف الوحيانيّ للتجربة الزمانيّة–المكانيّة في المعراج» و«الصياغات المقبولة في الفيزياء المعاصرة حول تغيّر الزمن»؟ (غرين، ٢٠١٧)تبرزُ ضرورةُ البحث من ثلاثة وجوه: أوّلًا، من منظور علوم القرآن والحديث، إنَّ البيانَ العقلانيَّ للإيمان والجوابَ عن أسئلة العصر حول المعراج مشروطان بصونِ حدودِ النصّ والغيب وبقواعدِ الفهم الديني (المصلح، ٢٠١٨). ثانيًا، من المنظور العلمي، إنَّ الصياغاتِ المعتبرة لاتّساع الزمن وانحناءِ الزمكان تفتحُ آفاقًا للتفكير في «اختلاف معدّل الزمن»، وإنْ كانت سيناريوهاتٌ كالممرّات/الأنفاق الدوديّة لا تزالُ في الغالب ضمن نماذج نظريّة صارمة (ديفيز، ٢٠١٨). ثالثًا، منهجيًّا، ينبغي لحوارِ النصّ الدينيّ والعلم أن يتجنّب «التطابُق المتعجِّل» كما يتجنّب «افتعالَ التقابلاتِ غير اللازمة»، ملتزمًا بحدودِ كلٍّ من الساحتين (الطيار، ٢٠١٨)في هذه المقالة، يُفهم «السفر عبر الزمن» على نحوٍ موسَّعٍ بوصفه كلَّ «اختلافٍ في معدّل جريان الزمن المجرَّب قياسًا إلى أُطرٍ مرجعيّةٍ أخرى»، من اتّساع الزمن النسبيّ إلى الممرّات الهندسيّة المُفترَضة في الزمكان (الشاعر، ٢٠١٩). وهذا التعريفُ يَفترقُ صراحةً عن الادّعاءات الجازمة بـ«العودة الفعليّة إلى الماضي التاريخي» أو «التقدّم الإرادي إلى مستقبلٍ معيَّن»، وإنّما يحدّدُ فقط النطاقَ المفهوميَّ للمقارنة مع تجربة المعراج (العبودي، ٢٠٢٠). وبالتوازي، فإنَّ أصلَ وقوع الإسراء والمعراج في الإطار الإسلامي «آيةٌ على قدرة الله»، وكلُّ تقريبٍ فيزيائيّ إنّما غايته «تقريبُ الفهم» لا «تحويلُ علّة المعجزة إلى آليّةٍ طبيعيّة» (الألباني، ٢٠٠٨)وتُظهرُ المراجعاتُ الأدبيّة أنّه على الجبهة التفسيريّة–السيرويّة، فإنَّ التحليلَ الدلاليَّ لآية الإسراء وضبطَ الروايات المتعلّقة بها قد بيّنا ثبوتَ الحادثة وبعضَ وظائفِها التربويّة/المعرفيّة (الطبري، ٢٠٠١). وفي مقاربات الإعجاز العلمي والطرحِ بين–التخصّصي، قُدِّمت محاولاتٌ لِمقاربة بعض الأوصاف المذكورة في المعراج، مثل «تغيّر إدراك الزمن» و«تجاوز حدود المكان المألوف» بالمفاهيم العلميّة (النجّار، ٢٠١٩). أمّا على الجبهة العلميّة الخالصة، فقد صاغتْ مصادرُ الفيزياء النظريّة المعروفةُ أطرَ اتّساع الزمن، وانحناء الزمكان، وإمكاناتِ الممرّات الدوديّة الرياضيّة (غرين، ٢٠١٧). ومع ذلك يبقى الاحتياجُ قائمًا إلى دراسةٍ نظاميّةٍ تطبيقيّةٍ تُقارن (ضمن ضوابط الإعجاز العلمي) بين نصوص الإسراء والمعراج وهذه النماذج، بما يجنّبُ اختزالَ المعجزة ويصونُها من القياسات غيرِ السويّة (المصلح، ٢٠١٨)يرتكز الإطارُ المنهجيُّ للبحث على جملةِ أصول: الاعتمادِ على ظواهرِ معاني

النصوص واجتنابِ التأويلات البعيدة؛ التمييزِ الواضح بين «التفسير العلمي» و«دعوى الإعجاز»؛ عدمِ حصرِ معنى الآية في نموذجٍ علميٍّ واحد؛ وردِّ أمورِ الغيب إلى مشيئةِ الله (الطيار، ٢٠١٨). وعلى هذا الأساس، فمقصدُ المقالة ليس «استخراجَ معادلاتٍ فيزيائيّةٍ من الآيات»، بل تقويمُ إمكان «المحاذاة الدلاليّة» بين «التوصيفاتِ الوحيانيّة للتجربة الزمانيّة–المكانيّة في المعراج» و«الصياغات الراسخة في الفيزياء الحديثة» (النجّار، ٢٠١٩).

ضمن الأهداف، تسعى هذه الدراسة إلى:

١. البيانِ المفهوميّ للسفر عبر الزمن في الفيزياء الحديثة مع التركيز على النسبيّة الخاصّة/العامّة والنماذج ذات الصلة.

٢. التحليلِ النصّي–الروائي للإسراء والمعراج في المصادر القرآنيّة والحديثيّة الموثوقة مع التأكيد على الأبعاد الزمانيّة والمكانيّة.

٣. التطابقِ المنهجيّ بين أنماطِ التغيّر الزمنيّ العلميّة وبعضِ المكوّنات المرويّة في المعراج، مع حفظِ حدِّ الفاصل بين المعجزة والعلم.

٤. بيانِ الحدود الكلاميّة والفقهيّة لعلاقة الإسلام بأطروحاتِ السفر عبر الزمن وتجنّبِ النتائج المتعارضة مع أصولِ الاعتقاد بالغيب والنبوة.

٥. إظهارِ الوظائف المعرفيّة لهذه المقارنة في تعزيز الفهم المعاصر للمعجزة وإلهامِ البحوث اللاحقة في لاهوت العلم.

ومن البدَهي أنّ هذه الدراسة لا تَدّعي «تفسيرًا فيزيائيًّا تامًّا للمعراج»؛ فالمعراجُ، في منطق الإيمان، «آيةٌ لاقتدار الله»، وكلُّ مقاربةٍ علميّةٍ إنّما تُستَعمَلُ «تقريبِ الفهم». ومن جهةٍ أخرى، لا يكونُ توظيفُ مُنجزات الفيزياء مُعتبَرًا إلّا إذا استندَ إلى أُطرٍ قابلةٍ للتحقّق التجريبي، مع اجتنابِ التعامل مع الفروضِ غيرِ القابلةِ للاختبار بوصفِها «إثباتًا».

٣. المفاهيمُ النظريّةُ للسفرِ عبرَ الزمن

– التاريخُ المفهوميّ «السفر عبر الزمن»

في الفيزياءِ الكلاسيكيّةِ النيوتنيّة، كان «الزمن» يُعَدّ مقدارًا مطلقًا مستقِلًّا عن «المكان»، ولذا لم يكن للكلامِ على «السفر في ذاتِ الزمن» موضعٌ نظريّ (ديفيز، ٢٠١٨). ومع تبدّلِ هذه الصورةِ في الفيزياء الحديثة (أوّلًا في النسبيّةِ الخاصّة عام ١٩٠٥ ثم في النسبيّةِ العامّة عام ١٩١٥) ارتبط «الزمن» بـ«المكان» في نسيجٍ واحد هو «الزمكان»، وأضحى معدّلُ مروره تابعًا للسرعةِ وللحقلِ الثقالي؛ فـ«اتّساعُ الزمن» الحركي/الثقالي نتيجةٌ مباشرةٌ لهذه الصياغة (هوكينغ، ٢٠١٨). وقد ريّضَ مينكوفسكي هذه الوحدةَ وأبانَ أنَّ الأحداثَ تنتظمُ على «خطوطِ عالم» في متّصلٍ رباعيّ الأبعاد، وأنَّ «المخاريطَ الضوئيّة» تحدّدُ البنيةَ العِلّيّة (غرين، ٢٠١٧)ومنذ منتصفِ القرن العشرين، أجازَت بعضُ حلولِ معادلاتِ أينشتاين (مثلُ كونِ غودل الدوّار) وجودَ «منحنياتٍ زمنيةٍ مُغلَقة»، فصوّرت إمكانَ الرجوعِ إلى الماضي على مستوى رياضيّاتِ النظريّة، وإنْ بقيَ تحقُّقُه الفيزيائيُّ موضعَ نقاشٍ (ديفيز، ٢٠١٨). وبالتوازي، أبرزَ فَهمُ الثقوبِ السوداءِ وأُفُقِ الحدث التباطؤَ الشديدَ للزمنِ عند الراصدِ المحلّي وفوارقَ التجربةِ الزمنيّةِ بين الأطرِ المرجعيّة (هوكينغ، ٢٠١٨). كما أدخلت فكرةُ «جسرِ أينشتاين–روزن» ثم «الثقوبِ الدوديّةِ القابلةِ للعبور» مفهومَ «الاختصاراتِ الزمكانيّة» إلى الأدبيّات؛ فإذا غدت فُوَّهاتُها غيرَ متزامنةٍ أمكن الحديثُ عن «إزاحةٍ زمنيّةٍ فعّالة»، غيرَ أنّ متطلّباتِ الاستقرارِ والحاجةَ إلى طاقاتٍ سالبةٍ تحصرُها في فرضيّاتٍ صارمة (غرين، ٢٠١٧).ولضبطِ تبعاتِ الرجوعِ المنطقيّة، طُرحت مباحثُ مثل «مبادئِ الاتّساق» و«فرضيةِ حمايةِ التسلسلِ الزمنيّ» التي تؤكّدُ أنّ قوانينَ الفيزياءِ التامّة تحولُ دونَ مناطقِ انتهاكِ السببيّة (هوكينغ، ٢٠١٨). وفي المحصّلة، ما لم تتوفّرْ نظريّةٌ موحّدةٌ للجاذبيّةِ الكمّية، سيبقى الحُكمُ النهائيُّ على إمكاناتِ «السفر عبر الزمن» في الأفقِ النظريّ (هوكينغ، ٢٠١٨). وفي الأدبيّاتِ الإسلاميّةِ المعاصرة، أدّى إدخالُ مفاهيمِ النسبيّة في مباحثِ الكلام/الإعجازِ العلميّ إلى قراءاتٍ جديدةٍ لـ«الزمنِ الإدراكيّ» و«اختلافِ المقاييس»، ومهّدَ لحوارٍ رصينٍ بين النصّ الدينيّ وفيزياءِ الزمن، وذلك في حدودِ «تقريبِ الفهم» لا في إطارِ التعليلِ السببيّ للمعجزة (الشاعر، ٢٠١٩).

– المفاهيمُ العلميّةُ ذاتُ الصلة

أ) النسبيّةُ الخاصّة واتّساعُ الزمن: عند السرعاتِ القريبةِ من سرعةِ الضوء يمرُّ زمنُ «الراصدِ المتحرّك» أبطأ من زمنِ الراصدِ الساكن؛ وهذا هو اتّساعُ الزمن، وقد ثبتَ تجريبيًّا في ظواهرَ مثل اضمحلالِ الميوناتِ عاليةِ الطاقة وفي مُزامنةِ أنظمةِ الملاحةِ بالأقمارِ الصناعيّة (هوكينغ، ٢٠١٨).

ب) النسبيّةُ العامّة و«تثاقُلُ الزمن»: يؤدّي الحقلُ الثقاليُّ القوي إلى «إبطاءِ» جريان الزمن؛ فبالقربِ من الكتلِ شديدةِ الكثافة (كالنجومِ النيوترونية/الثقوبِ السوداء) تدقُّ الساعةُ أبطأ، وقد قيس هذا المبدأ (حتى ضمن فوارقَ ثقاليّةٍ صغيرة) بدقّةِ الساعاتِ الذرّية (غرين، ٢٠١٧).

ج) الثقوبُ الدوديّة والاختصاراتُ الهندسيّة: تُتيحُ بعضُ حلولِ معادلاتِ أينشتاين وجودَ «ممرّاتٍ» نظريّة بين نقاطٍ متباعدةٍ في الزمكان (الثقوبُ الدوديّة). فإذا كانت «صالحةً للعبور ومستقرّة»، جازَ (في ترتيباتٍ معيّنة) تفسيرُ فروقِ الزمن بين فُوَّهاتِها بوصفِها «إزاحةً زمنيّة» (غرين، ٢٠١٧).

د) الثقوبُ السوداء وأُفُقُ الحدث: بالقربِ من أُفُقِ الثقبِ الأسود، تبدو العمليّاتُ (لراصدٍ بعيد) ذاتَ «تباطؤٍ زمنيٍّ» شديد؛ أمّا السقوطُ إلى الداخل فيقودُ إلى مناطقَ فيزيائيّتها مجهولة/تفرُّديّة، ولا يُقدِّمُ سبيلًا عمليًّا إلى «العودةِ إلى الماضي» (هوكينغ، ٢٠١٨).

هـ) سهمُ الزمن والديناميكا الحراريّة: حتّى لو سمحتْ هندسةُ الزمكان بمساراتٍ رجوعيّة، فإنَّ «سهمَ الإنتروبيا» (أي الازديادَ الكُلّيَّ للعشوائيّة) منسجمٌ مع حدسِنا عن الزمن، وأيُّ سيناريو «عودةٍ» يجب أنْ يتوافقَ مع هذه القيودِ الحراريّة (ديفيز، ٢٠١٨).

– أنواعُ السفرِ عبرَ الزمن: إلى المستقبل وإلى الماضي

أ) السفرُ إلى المستقبل (الحالةُ الأقوى إمكانًا .(هذا النمطُ أوضحُ فيزيائيًّا وأقلُّ إشكالًا:

١. اتّساعُ الزمن الحركيّ. إذا تحرّك نظامٌ بسرعاتٍ قريبةٍ من سرعةِ الضوء قياسًا إلى إطارٍ مرجعيّ ساكن، مرَّ «الزمنُ الخاصّ» على خطِّ عالمه أبطأ؛ لذا، عند العودة، يبدو عمرُه المُعاش أقلَّ من «الزمنِ المنقضي» لدى الساكنين. هذه هي صورة «توأمَي أينشتاين» الكلاسيكيّة وتُفسَّر بـ«معامل لورنتس»؛ وهي ظاهرةٌ عينيّة قابلةٌ للقياس ويستلزمُ إدخالُ تصحيحاتٍ لها في التقانات الدقيقة (هوكينغ، ٢٠١٨).

٢. اتّساعُ الزمن الثقاليّ. الإقامةُ الطويلةُ في الحقولِ الثقاليّة القويّة تُبطِّئُ جريانَ الزمن المحلّي؛ وبلُغةِ هندسةِ الزمكان، يَعني الاقترابُ من الكتلِ فائقةِ الكثافة «مَسارًا زمنيًّا أقصر» للراصدِ المحلّي، وبهذا يَبلُغُ عمليًّا «مستقبلَ» مَن في حقلٍ أضعف. اختلافُ معدّلاتِ الساعاتِ باختلافِ الارتفاعات، ولزومُ التصحيحاتِ النسبيّة في أنظمةِ الملاحةِ بالأقمار الصناعيّة، مثالان هندسيّان لهذا الأصل (غرين، ٢٠١٧).

٣. ومع أنّ أصلَ «التقدّم الزمنيّ» واضح، فإنَّ تحقّقَ رحلةٍ بشريّةٍ بسرعاتٍ نسبيّةٍ يُواجهُ تحدّياتِ طاقةٍ هائلة، وتسارُعاتٍ قابلةٍ للحياة، ووقايةً من الإشعاع؛ لذا يبقى (حتى الآن) في أفقٍ تكنولوجيٍّ بعيد (ديفيز، ٢٠١٨).

ب) السفرُ إلى الماضي (الأكثرُ إشكاليّة .(ثمّة مساران نظريّان رئيسان:

١. المنحنياتُ الزمنيّةُ المُغلقة(CTC) . في بعضِ كوسمولوجيّاتِ النسبيّةِ العامّة (مثلُ الفضاءاتِ–الأزمان الدوّارة أو الهندساتِ المُطوَّلة) يمكن تعريفُ مساراتٍ يعودُ فيها خطُّ عالمِ الراصد (بعد مسارٍ زمانيّ) إلى نقطةٍ من ماضيه؛ أي يُلتقُ «الاتّجاهُ الزمنيّ» التفافًا فعّالًا (ديفيز، ٢٠١٨). والآليّةُ الهندسيّةُ لذلك تقترنُ عادةً بـ«جرِّ الأطر» في الفضاءات–الأزمان الدوّارة، أو بشروطٍ حدّيّةٍ غيرِ مألوفةٍ على المقياس الكونيّ، وتستندُ غالبًا إلى نماذجَ يتطلّبُ تحقّقُها الفيزيائيُّ افتراضاتٍ شديدةَ التقييد (كالدورانِ القريبِ من الضوئيّ أو توزيعاتِ كتلةٍ غيرِ واقعيّة) (ديفيز، ٢٠١٨). وإلى جانبِ العُسْرِ الفنّيّ، ثِقَلٌ في التبعاتِ المنطقيّة: فبانسدادِ التاريخ، تظهرُ «حلقاتٌ سببيّة» و«معلوماتٌ بلا منشأ»، ويُستدعى مبدأُ «اتّساق نوفيكوف» الذي يُجيزُ فقط ما لا يُحدِثُ تعارضًا مع الماضي (غرين، ٢٠١٧). وعلى المستوى الكلّي لبنيةِ الزمكان، تُفضي CTC إلى فقدان «الاتّساق السببيّ العام/الفرضيّة العالمية (global hyperbolicity)» وتُعقّدُ طرحَ «مسألةِ القِيم الابتدائيّة»؛ لذلك يشكُّ كثيرٌ من الفيزيائيّين (مع قبولِ الإمكانِ الرياضيّ) في الإمكانِ الفيزيائيّ واستقرارِ تلك الهندسات (ديفيز، ٢٠١٨).

٢. الثقوبُ الدوديّةُ القابلةُ للعبور. تقومُ فكرةُ الزمنَ–الرجوع عبرَ الثقبِ الدوديّ على مخطّطٍ بسيط: إذا جُعِلَت فُوَّهاتُ نفقٍ زمكانيّ «غيرَ متزامنة» (مثلًا بتحريكِ إحدى الفُوَّهتَين بسرعاتٍ عاليةٍ جدًّا أو إبقائها زمنًا في حقلٍ ثقاليّ قويّ)، تكوّنَ بين الفُوَّهتَين «فارقٌ زمنيّ»؛ فالعبورُ من الفُوَّهة «الأصغر سنًّا» والخروجُ من «الأكبر سنًّا» يُعيدُك فعّالًا إلى ماضي الإطارِ الخارجيّ (غرين، ٢٠١٧). غيرَ أنّ هذا المخطّط يواجهُ قيودًا عدّة: أوّلًا، يلزمُ الثقبُ الدوديُّ القابلُ للعبور ،كي لا ينهارَ «حَلْقُه»—«مادّةٌ ذاتُ طاقةٍ سلبيّةٍ فعّالة»، وهي لا تُصاغُ إلّا في نُظُمٍ كموميّةٍ مخصوصةٍ وعلى مقاييسَ متناهيةِ الصِّغر وبصُوَرٍ عابرة (غرين، ٢٠١٧). ثانيًا، قد تُؤدّي التقلّباتُ الكموميّةُ للحقولِ قربَ الفُوَّهات، مع الارتجاعِ الثقاليّ، إلى لااستقرارِ النفقِ أو انسداده؛ ومن ثَمَّ (لو وُجِدَت آليّةٌ لِلّا–تزامُن) فإنَّ إبقاءَ استقرارِ النفق مسألةٌ مستقلّةٌ عسيرة (غرين، ٢٠١٧). ثالثًا، الأعباءُ الهندسيّة—من ضبطِ قوى المدِّ والإشعاع إلى تزويدِ الطاقة وحمايةِ العابر—تَخرُجُ بالمشروعِ من حيّزِ التكنولوجيا المنظورة (ديفيز، ٢٠١٨). وأخيرًا، يلقى هذا المسارُ بدوره أسئلةً سببيّةً ونماذجَ «اتّساقٍ»: فحتى بافتراضِ تهيئةٍ مُستقرّة، ينبغي بيانُ خُلُوِّ التاريخِ الناتج من التناقض، وألّا تسُدَّ قوانينُ الفيزياء الأساسُ بابَ «انتهاكِ السببيّة» (غرين، ٢٠١٧). والخلاصة: إنَّ «الرجوعَ الزمنيَّ الفعّال» عبرَ الثقوبِ الدوديّة واضحٌ مفهوميًّا، أمّا تحقّقُه الفيزيائيّ فبعيدٌ جدًّا بسببِ الحاجةِ إلى مادّةٍ غيرِ اعتياديّة، ولااستقراراتٍ كموميّة، وصعوباتٍ هندسيّة (غرين، ٢٠١٧؛ ديفيز، ٢٠١٨).

ج) المفارقاتُ ونماذجُ الاتّساق. يُفضي الكلامُ على «العودة إلى الماضي» مباشرةً إلى مفارقاتٍ سببيّة. أشهرُها «مفارقةُ الجدّ»: إذا استطاعَ مسافرُ الزمن إزالةَ سببِ وجودِه في الماضي تعارضَتِ النتيجةُ مع المقدّمة. وهناك أنواعٌ أخرى: «مفارقةُ حلقةِ المعلومات/Bootstrap» حيث يدورُ شيءٌ أو علمٌ بلا منشأ أوّل في حلقةٍ مغلقة، و«مفارقاتُ حرّيةِ الإرادة» التي تسألُ: مع العلمِ بالمستقبل، إلى أيّ حدّ يستطيعُ الفاعلُ أن يُخالفَه؟ (ديفيز، ٢٠١٨).

وقد اقتُرِحت ثلاثةُ مناهجَ رئيسةٍ لضبطِ هذه التناقضات:

١. مبدأُ اتّساقِ نوفيكوف: لا تقعُ في الزمكان إلّا تلك المسارات/الأحداث التي تنسجمُ مع التاريخِ كلّه؛ في هذا الإطار، تُجهَضُ محاولاتُ المسافرِ لتغييرِ حدثٍ ماضٍ كلَّ مرّةٍ على نحوٍ ما، وتميلُ احتمالاتُ الأفعال «الناقضةِ لذاتها» إلى الصفر. ولازِمُه الفلسفيّ تشديدُ القيودِ على «حرّية الإرادة» بحضور CTC ، وقبولُ حلقاتٍ معلومة/شيء «بلا منشأ» على أنّها ممكنةٌ منطقيًّا وإنْ كانت نافيةً للسَّوِيّة الحدسيّة (ديفيز، ٢٠١٨).

٢. سيناريوهاتُ التفرّع/تعدّدِ العوالم: تُحَلّ المسألةُ بتفريقِ «السوابق»: كلُّ محاولةٍ لتغييرِ الماضي تُنتِجُ فرعًا جديدًا من التاريخ، ويَبقى ماضي الفرعِ الأصلِ على حاله؛ فلا يُقتَلُ جدٌّ في الفرعِ الأوّل ولا يظهرُ تناقض. لكنَّ الثمنَ الميتافيزيقيّ باهظٌ (الهويّةُ الشخصيّة، عددُ العوالم، وإمكانُ الاختبارِ عبرَ الفروع)، مع أنّه يغلقُ المفارقة منطقيًّا (غرين، ٢٠١٧).

٣. فرضيةُ حمايةِ التسلسلِ الزمنيّ: تسُدُّ من الأصلِ سبيلَ نشوءِ مناطقِ انتهاكِ السببيّة؛ فمُحصِّلةُ قوانينِ الفيزياء (ولا سيّما الارتداداتُ الكموميّة قربَ مناطق CTC)تزيدُ طاقةَ الفراغِ وآثارَ الحقول قبلَ قيامِ الحلقاتِ الزمنيّة، فلا تسمحُ «بخياطةِ الماضي إلى ذاتِه». هذا المنهجُ يحلُّ المفارقاتِ «الوقاية الفيزيائيّة»، وإنْ بقيَ (حتّى الآن) فرضيةً قويّةً لا قضيّةً مُبرهَنة (هوكينغ، ٢٠١٨)ولا إجماعَ تجريبيًّا حاسمًا بين هذه الأجوبة: فـ«نوفيكوف» يمضي بـ«اتّساقٍ صارم» على حسابِ تقييدِ الإرادة وقبولِ حلقاتٍ بلا منشأ؛ و«التفرّع» يفرُّ من التناقض بتوسيعِ الأنطولوجيا إلى عوالمَ متعدّدة، لكنّه يثيرُ أسئلةَ الهويّةِ والاختبار؛ و«حمايةُ التسلسلِ الزمنيّ» تُبطِلُ إمكانَ الرجوع ابتداءً بالاتّكاء على ديناميّاتٍ فيزيائيّة. وفي أفقِ هذا البحث، ليست وظيفةُ هذه النماذج «إثباتَ الرجوع فيزيائيًّا»، بل الإيضاحَ المفهوميّ: أي إنّه إنْ جرى يومًا حديثٌ عن عَوْدٍ إلى الماضي، وجب تحديدُ موقفِ السببيّة، ومنشأِ المعلومات، وحدودِ الإرادةِ الإنسانيّة ضمن واحدٍ من هذه الآفاق؛ وإلى ذلك الحين يبقى الحديثُ عن «الرجوع» أقربَ إلى مسألةٍ نظريّة/فلسفيّة منه إلى إمكانٍ هندسيّ (ديفيز، ٢٠١٨).

– القيودُ والإمكانات

في تقويمِ «القيود والإمكانات» ينبغي النظرُ معًا إلى القيودِ النظريّة/الفنيّة وإمكاناتِ التقدّم الزمنيّ العمليّ: من جهةِ القيود، تُفيد «فرضيةُ حمايةِ التسلسلِ الزمنيّ» لهوكينغ بأنَّ المنظومةَ المكتملةَ لقوانينِ الفيزياء تُرجِّحُ أن تجعل نشوءَ مناطقِ انتهاكِ السببيّة (كالمنحنياتِ الزمنيّةِ المُغلقة) غيرَ مستقرٍّ أو غيرَ ممكن، كما تُظهِرُ الحساباتُ شبهُ الكلاسيكيّة أنَّ تقلّباتِ حقولِ الكمّ قربَ فُوّهةِ الثقبِ الدوديّ تميلُ بالطاقاتِ إلى مقاديرَ هائلة فتُغلقُ النفقَ عمليًّا (هوكينغ، ٢٠١٨). وفوقَ ذلك، تشترطُ شروطُ الطاقةِ في النسبيّةِ العامّة وجودَ/استقرارَ ثقبٍ دوديٍّ قابلٍ للعبور على «كثافةِ طاقةٍ سلبيّةٍ فعّالة»، وهي ظاهرةٌ لا تُرصَدُ إلّا في أنظمةٍ كموميّةٍ مخصوصة (كأثرِ كازيمير) وعلى مقاييسَ صغيرةٍ جدًّا وبمدىً محدود (غرين، ٢٠١٧). وحتى إنْ كانت الحلولُ الهندسيّة «مقبولةً رياضيًّا»، فإنَّ الارتدادَ/الاسترجاعَ الثقاليَّ لمادّةِ/إشعاعِ العبور قد يبدّلُ هندسةَ النفق ويزعزعُ استقرارَه، كما أنَّ تشكّلَ «آفاقِ التسلسلِ الزمنيّ» يقترنُ بتباعدِ توتّر–طاقةِ الفراغ (ديفيز، ٢٠١٨). وأخيرًا، يُذكَرُ أنَّ غيابَ نظريّةٍ كاملةٍ للجاذبيّةِ الكموميّة يُرجِئُ الحُكمَ الحاسمَ على إمكاناتِ الرجوعِ الزمنيّ إلى أفقٍ نظريٍّ لاحق (هوكينغ، ٢٠١٨).وعلى الضفّةِ المقابلة لهذه القيود، فإنَّ «التقدّمَ الزمنيَّ» إلى المستقبل (لا الرجوع) عبرَ اتّساعِ الزمنِ الحركيّ/الثقاليّ متاحٌ من حيثُ الأصل، وهو مُقاسٌ عمليًّا في تصحيحاتِ توقيتِ الساعاتِ الذرّية وأنظمةِ الملاحة (هوكينغ، ٢٠١٨). وبلُغةٍ مفهوميّة: إنَّ الحركةَ بسرعاتٍ قريبةٍ من الضوئيّة أو المُكثَّفةَ في حقولٍ ثقاليّةٍ قويّة تجعل «زمنَ المسافر» أبطأ من «زمنِ الراصدِ البعيد»، فيبلغُ بذلك «مستقبلَهم» (غرين، ٢٠١٧)، وإنْ كانتِ الإنجازاتُ البشريّةُ هنا تصطدمُ بتحدّياتِ طاقةٍ هائلة، وتسارُعاتٍ قابلةٍ للحياة، والوقايةِ من الإشعاع، وأنظمةِ دفعٍ معقّدة (ديفيز، ٢٠١٨).ومع ذلك، نُؤكّدُ في هذا البحث أنَّ كلَّ «مقاربةٍ/تطابُق» مع تقاريرِ الإسراءِ والمعراج إنّما يبقى في حدودِ التشاكُلِ النوعيّ و«تقريبِ الفهم»، ولا يحلُّ محلَّ معنى المعجزة ولا دليليةِ الدِّين؛ وهو أصلٌ منهجيّ يقومُ على التمييزِ بين «التفسيرِ العلميّ» و«دعوى الإعجاز»، واجتنابِ الجزميةِ العلميّة، وعدمِ حصرِ معنى الآياتِ في نموذجٍ واحدٍ متغيّر (المصلح، ٢٠١٨؛ الطيّار، ٢٠١٨).

٤. تحليلُ حادثةِ الإسراءِ والمعراج

– ماهيةُ الحدثِ الزمانيةُ والمكانية

استنادًا إلى النصّ القرآني، فالإسراءُ هو انتقالٌ ليليٌّ لرسولِ الله ﷺ من المسجدِ الحرام إلى المسجدِ الأقصى، والمعراجُ عروجٌ من هناك إلى العوالمِ العُلوية؛ وهو وقوعٌ قُيِّد في الوحي «لَيْلًا» دلالةً على حصولِه في مدّةٍ قصيرة (القرآن الكريم، الإسراء: ١). وفي الرواياتِ المسندة، فضلاً عن أصلِ الانتقال، وردت كيفيّةُ الوسيلةِ (البُراق)، ومرافقةُ جبريل، والابتداءُ من المسجدِ الحرام، والدخولُ إلى المسجدِ الأقصى، ثم العروجُ طبقةً بعد طبقةٍ إلى السماوات؛ وقد أثبتَ النقدُ السنديُّ أصلَ الحادثةِ وكليّاتِ المسار بدرجةٍ معتبرة (الألباني، ٢٠٠٨). ومن جهةِ اللسانِ الديني، فتنكيرُ «لَيْلًا» في الآية فُهِم عند المفسّرين علامةً على «جزءٍ من الليل» و«انضغاطِ زمنِ الحادثة»، وهو ما تعزّزه نُقولُ «العودةِ في الليلةِ نفسِها» (الطبري، ٢٠٠١)وفي التحليلِ «الزمني»، فإنَّ توصيفَ كمٍّ كبيرٍ من المشاهداتِ واللقاءاتِ في ليلةٍ واحدة يَطرَحُ صياغةَ «انضغاطِ التجربةِ الزمنية»؛ وهذا النمطُ من الفارقِ

بين «الزمنِ المُدرَك» و«زمنِ الإحداثيات» يجدُ في صِيَغِ الفيزياءِ الحديثة (تحتَ عنوانِ اتّساعِ الزمنِ عند السرعاتِ العالية والحقولِ الثقاليّةِ الشديدة) إطارًا مفهوميًّا لتقريبِ الفهم، من غيرِ أن تُختزلَ المعجزةُ إلى تفسيرٍ سببيّ (السنجري، ٢٠١٨). وبصياغةٍ أدقّ، تُظهرُ فلسفةُ علمِ الزمن وكوسمولوجيا اليوم أنَّ معدّلَ جريانِ الزمنِ تابعٌ للإطارِ المرجعيّ؛ ومن ثمّ فـ«الزمنُ النفسي/الإدراكي» ليس بالضرورةِ عينَ «زمنِ الإحداثيات»، ويمكنُ تمثيلُ فروقِهما رياضيًّا ضمنَ نماذجِ الزمكان (ديفيز، ٢٠١٨)وعلى المستوى «المكاني»، تتحدّثُ رواياتُ المعراج عن «طبقاتٍ» و«أبوابٍ» للسماء؛ لكلِّ سماءٍ صاحبٌ وعلامةٌ، ويُرسَمُ مسارُ العروجِ تدريجيًّا من أفقِ الأرض إلى مواضعَ عليا مثل «البيتِ المعمور» و«سدرةِ المنتهى». هذا الرسمُ «قُرب–محوريّ» لا «مسافة–محوريّ»؛ أي إنّه بيانٌ لمراتبَ وجوديّةٍ وحضوريّة، لا تفصيلٌ كيلومتريّ/فلكيّ للفواصل (السيوطي، ٢٠٠٥). وعليه، فإنَّ ماهيّةَ الحادثةِ الزمانيّة–المكانيّة في البيانِ الدينيّ تابعةٌ أكثرَ لـ«نِسَبِ الحضور» و«درجاتِ القرب» منها للكمّيّاتِ الفيزيائيّة؛ وكلّما استُخدِمت مفاهيمُ الفيزياء للتقريب، فإنّما نبقى صراحةً في مقامِ التشبيهِ المفهوميّ والإيضاحِ الذهنيّ (المصلح، ٢٠١٨).

– رؤيةُ الأنبياء والملائكة في أزمنةٍ مختلفة

تفصيلُ لقاءاتِ النبيّ ﷺ بآدمَ ويحيى وعيسى ويوسفَ وإدريسَ وهارونَ وموسى وإبراهيمَ عليهم السلام في السماواتِ المتعاقبة (من «الاستفتاح» و«التحيّة» وتعريفِ صاحبِ المرتبة) مضبوطٌ في مصادرِ روايةِ المعراج، ويُوحي بأنَّ نِسبةَ كلِّ سماءٍ إلى نبيٍّ تُنشِئُ منظومةً من المعاني التربويّة/الوجوديّة؛ منها «وراثةُ النبوّة»، و«تراتبُ المقامات»، و«اتّصالُ السلوك المحمّديّ بسلسلةِ الأنبياء» (السيوطي، ٢٠٠٥). وهذا التتابعُ في الرؤى يدلُّ على «تعدُّدِ الحضرات» و«تراتبِ المراتب» في عالَمِ الملكوت، ويُظهِر أنَّ التجربةَ المعراجيّة من سنخِ «المشاهدةِ الحضوريّة» في سُاحاتٍ وجوديّةٍ متفاوتة؛ حيث لا يكون «الزمنُ التاريخيُّ الأرضيّ» معيارَ التقدُّم والتأخّر، بل تكونُ علاقةُ النبيّ بالأنبياءِ علاقةَ حضورٍ في المقام لا حضورٍ في التقويم (ابن كثير، ١٩٩٨)ومن منظورِ التقريبِ العلميّ، يمكنُ رؤيةُ هذه التقارير في أفقِ «اللّاتزامُنِ بين الراصدين» و«اختلافِ الأُطر المرجعيّة»: كما تنهارُ في النسبيّة وحدةُ الزمن، ويجوزُ لراصدَيْنِ أن يُسنِدا قيَمًا زمنيّةً مختلفةً للحدثِ نفسِه، تقعُ في روايةِ المعراج «حضورٌ متزامنٌ لأشخاصٍ ينتسبون إلى أزمنةٍ تاريخيّةٍ متباينة» من غير تعارُض؛ مع التأكيدِ أنّ هذا القياسَ تشبيهٌ مفهوميٌّ فحسب، لا تعليلٌ سببيٌّ للمعجزة (الشاعر، ٢٠١٩). وتُفهَمُ أدوارُ الملائكةِ ضمنَ هذا الأفقِ الوجوديّ: «فتحُ بابِ السماء»، و«التثبيتُ والتسديد»، و«تعريفُ صاحبِ المرتبة» تجلّياتٌ لنظامٍ ملكوتيّ، وتدلُّ على أنَّ مسارَ المعراجِ خريطةٌ لـ«مجالسةِ الملكوت»، لا سَيْرٌ في السماءِ الفيزيائيّة بالمعنى الفلكيّ المعاصر (المصلح، ٢٠١٨). وعلى هذا المنهج، وإنِ استعانَ قارئُ اليوم ببعضِ مفاهيمِ الفيزياء لتكوينِ صورةٍ ذهنيّةٍ أوضح، فالأصلُ أنْ يَتقدَّم «ثبوتُ الرواية» و«دلالتُها النصيّة» على كلِّ تقريب، وألّا تختلطَ حدودُ الغيبِ بالشهادة (الألباني، ٢٠٠٨).

– مشاهدةُ السماواتِ السبع

في المصادرِ التفسيريّةِ القديمة، نُقِل المرورُ من السماءِ الأولى إلى السابعة مع طقسِ «الاستفتاح»، وتعريفِ صاحبِ السماءِ وذكرِ علاماتِ كلِّ مرتبة؛ ويُعَدُّ «البيتُ المعمور» (الذي يطوفُ به كلَّ يومٍ سبعونَ ألفَ مَلَكٍ لا يعودون إليه) محورَ الأوصافِ في السماءِ السابعة، كما أنَّ نسبتَه بالكعبةِ في الأرض تُظهِرُ مركزيّةَ «القبلة» في ساحتي الشهادةِ والملكوت (الطبري، ٢٠٠١)والتأويلُ الرُّوحيُّ لهذه «السماواتِ السبع» في لسانِ الوحيِ والرواية هو بيانُ «مراتبِ الوجودِ والقُرب»؛ فكلّما علا الصعودُ اشتدّ الحضورُ واقتربَ من موطنِ الوحي، حتى تتكشفَ عند «سدرةِ المنتهى» «موضعُ الوحي» و«حجابُ النور». وبهذا الفهم تُقدَّمُ رحلةُ المعراج بوصفِها «سلوكَ قُربٍ» لا «قطعَ مسافة» (سيد قطب، ٢٠١٨)ومن منظورٍ منهجيّ، ينبغي التصريحُ بأنَّ «طبقاتِ/أبوابَ» السماواتِ في البيانِ الدينيّ لا تُطابِقُ مباشرةً «التقسيمَ الطبقيَّ الفلكيَّ للغلافِ الجويّ/الكون»؛ فهما جهازان لغويّان متمايزان في الغاياتِ والمفاهيم، وأيُّ مُقارَنةٍ بينهما إنما تكونُ على سبيلِ تقريبِ الفهمِ مع تجنّبِ «الترجمةِ الحرفيّةِ واحدًا بواحد» (الطيّار، ٢٠١٨)ومع ذلك، وللمُعاونةِ على التصرّف الذهنيّ، يمكن التذكيرُ بأنّ فيزياءَ الزمكان تتحدّثُ أيضًا عن «بُنى هندسيّةٍ مُتعدّدةِ الطبقات»، و«طوبولوجيّاتٍ مختلفة»، و«مناطقَ عاليةِ الانحناء»؛ وهي مفاهيم (لا تفسيرًا للمعراج، بل كأدواتٍ للتصويرِ الذهنيّ) قد تُهيّئُ ذهنَ القارئ المعاصر لفهمِ «المراتب» (غرين، ٢٠١٧).وبناءً على هذا التمييز، فإنَّ مشاهدةَ السماواتِ السبع في التحليلِ الدينيّ خريطةٌ لـ«درجاتِ القُربِ والحضراتِ الوجوديّة»، أمّا في التحليلِ العلميّ المحض فلا تتجاوزُ «المحاذاةَ البنيويّة» مع بعضِ أفكارِ هندسةِ الزمكان، من غيرِ أن يُفرَّغَ معناها الدينيُّ أو يُستبدَل (الطيّار، ٢٠١٨).

– الظواهرُ الفيزيائيّةُ عند «سدرةِ المنتهى»

تُعرِّف آياتُ سورةِ النجم «سدرةَ المنتهى» بأنّها موضعُ «الإيحاء» و«موضعُ حُجُبِ النور»، وتؤكّد على قوله تعالى: «ما زاغَ البصرُ وما طغى» في مشاهدةِ النبيّ ﷺ؛ أي رؤيةٌ لا إفراطَ فيها ولا تفريط، تبقى (مع شدّةِ الآيات) ضمنَ الضبطِ الوحيانيّ (القرآن الكريم، النجم: ١٣–١٨). وتذكرُ الرواياتُ حول السِّدرة «أنوارًا» و«أغشيةً» و«فشوًّا/انتشارًا» تصفُ بلسانٍ تمثيليٍّ دينيّ حدودَ الإدراكِ البشريّ و«حِجابَ النور» (السيوطي، ٢٠٠٥).

ولأجلِ تقريبِ الفهمِ العلميّ، يمكنُ طرحُ ثلاثِ إشاراتٍ احتياطيّة:

١. شدّةُ الحقلِ وإبطاءُ الزمن: في جوارِ أكثرِ الأجرامِ كثافةً يُبطِّئُ الحقلُ الثقاليُّ الشديدُ جريانَ الزمنِ لدى الراصدِ المحلّي، وتبدو الوقائعُ «مكثَّفةً» لراصدٍ بعيد؛ وهذا قابلٌ للحسابِ في النسبيّةِ العامّة، ويمكنُ (على مستوى التصوير المفهوميّ) أنْ يُوازِيَ «شدّةَ المشاهدةِ وتراصَّ الأحداث» (هوكينغ، ٢٠١٨).

٢. الانحناءُ الشديدُ وتحوُّلُ مسارِ الضوء: في هندساتٍ عاليةِ الانحناء تنحرفُ أشعّةُ الضوءِ وتظهرُ «العدساتُ الثقالية»، فتغدو صورُ الأشياءِ لدى الراصدِ غيرَ مألوفة؛ وهذا يُيسّرُ (على مستوى التشبيه لا التفسير) فهمَ «انقلابِ المنظور» في مواضعِ القرب، مع التأكيد أنّه ليس تفسيرًا لـ«السِّدرة» نفسِها (غرين، ٢٠١٧).

٣. حدودُ العلمِ وآفاقُ السببيّة: تُقِرّ الفيزياءُ النظريّةُ بحدودِ المعرفة؛ فالمناطقُ التفرّديّةُ وآفاقُ الحدث ترسمُ حدودًا لا تكفي فيها القوانينُ المعروفةُ لوصفٍ كامل، وهو ما يدلُّ (من جهةٍ منهجيّة) على ضرورةِ حفظِ «حُرمةِ الغيب» في التعاطي مع «سدرةِ المنتهى» (ديفيز، ٢٠١٨)وفي جميعِ هذه الإشارات، يبقى الأصلُ ثابتًا: كلُّ ما يُقالُ هنا من «تقريبٍ علميّ» غايتُهُ إيضاحُ الصورةِ ذهنيًّا لِلقارئ، ولا يحلُّ محلَّ النِّسبةِ الإلهيّةِ للمعجزة (المصلح، ٢٠١٨).

٥. المواءمةُ مع مفهومِ السفرِ عبرَ الزمن

– تغيّرُ إدراكِ الزمن في «الرِّحلة»

تُخبِرُ الرواياتُ المعتبرةُ للمعراج عن حجمٍ كبيرٍ من اللقاءاتِ والمشاهداتِ في «ليلةٍ واحدة»، ويُعَدُّ تنكيرُ «لَيْلًا» في الآيةِ وعودةُ النبيّ ﷺ في الليلةِ نفسِها (عند شُرّاحِ الروايات) مؤيّدًا «انضغاطِ الزمنِ المُدرَك»، ودالًّا على أنّ ما جرى لصاحبِ الوحي كان من جنسِ العبورِ السريعِ جدًّا في المراتبِ والمشاهدات، من غيرِ أن يُقاسَ معيارُ «الطولِ» أو «القِصَر» بمقاييسِ الزمنِ الأرضيّ المعتاد (السيوطي، ٢٠٠٥)في أفقِ «التقريبِ العلميّ»، تُقدِّمُ النسبيّةُ الخاصّة إطارًا واضحًا لفهمِ اختلافِ التجربةِ الزمنيّة: فكلّما اقتربتْ سرعةُ الراصد من سرعةِ الضوء تباطأ معدّلُ «نبضِ ساعتِه» قياسًا إلى الراصدِ الساكن؛ وهذا الأثر خلافًا لـ«الوهمِ الإدراكي» ظاهرةٌ عينيّةٌ قابلةٌ للقياس، وتُصاغُ في المثالِ الكلاسيكي «توأمَي أينشتاين» بمعاملِ لورنتس (هوكينغ، ٢٠١٨). ومن جهةٍ أخرى، تُبيّنُ النسبيّةُ العامّة أنّ الحقلَ الثقاليَّ القويَّ يُبطِّئُ جريانَ الزمن؛ وهذا الأصلُ يُستثمَرُ هندسيًّا في تصحيحاتِ التوقيتِ لأنظمةِ الملاحة، وفي فروقِ الساعاتِ الذرّيةِ باختلافِ الارتفاعات، وعلى المستوى النظري قد تُفضي الإقامةُ في جوارِ حقولٍ هائلةٍ إلى فوارقَ لافتةٍ في «الزمنِ المنقضي لإطارَيْن مرجعيَّيْن» (غرين، ٢٠١٧)وبِلُغةِ هندسةِ الزمكان، فإنَّ «الزمنَ الخاصّ» على «خطِّ عالم» المسافر ليس هو عينَ «زمنِ الإحداثيّات» في إطارٍ مرجعيّ آخر، ويمكنُ حسابُ هذا الفارقِ بدقّة؛ وهو التمييزُ الفنّيُّ نفسُه الذي يُعين (في مقامِ التقريب) على فَهمِ «انضغاطِ التجربةِ الزمنيّة في الرِّحلة»، من غيرِ ادّعاءِ كشفِ «العلّةِ الطبيعيّةِ للمعراج» (ديفيز، ٢٠١٨). ومن منظورٍ منهجيٍّ في الإعجازِ العلميّ، فكلُّ إشارةٍ علميّةٍ هنا ليست إلّا أداةً لإيضاحِ الصورةِ ذهنيًّا، ولا تُبدِّلُ النِّسبةَ الإلهيّةَ للمعجزة؛ فلا ينبغي حصرُ المعنى في نموذجٍ علميٍّ واحد، ولا أنْ يتحمّلَ نموذجٌ علميٌّ (بمفرده) عبءَ الإثبات (المصلح، ٢٠١٨).

–تجاوزُ حدودِ الزمانِ والمكان

تفيدُ رواياتُ المعراج «الانتقالِ الليليّ السريع» إلى «العروجِ طبقةً بعد طبقةٍ من السماءِ الأولى إلى السابعة» وصولًا إلى «سدرةِ المنتهى» أنَّ المسارَ وقعَ على هيئةِ مراحلَ متعاقبة؛ وهي رواياتٌ تُوحي بـ«تخطّي حدودِ المكانِ المألوف» و«الدخولِ في عوالمَ أرفعَ من الطبيعةِ المعهودة»، وترسمُ خريطةً قُرب–محوريّة لمسارِ سلوكِ النبيّ ﷺ (الطبري، ٢٠٠١). وعلى مستوى «التقريبِ العلميّ»، تُبيّنُ فكرةُ «الاختصاراتِ الهندسيّة في الزمكان» (إنِ استقرّت وقُبِلتِ التحقّق) بصورةٍ مفهوميّةٍ لماذا يمكن (في هندساتٍ ذاتِ أنفاقٍ/ممرّات) وصلُ منطقتين متباعدتين جدًّا عبر «مسارٍ فعّالٍ» أقصر؛ وهذا الإطارُ المفهوميُّ يُيسّرُ تصوّرَ «قطعِ مسافاتٍ كثيرةٍ في مُدّةٍ وجيزة»، مع التأكيد أنّ استقراريّةَ هذه البُنى وقابليّتَها للعبور لم تُثبَتا (حتى الآن) بسببِ قيودِ شروطِ الطاقة و«فرضيةِ حمايةِ التسلسلِ الزمنيّ» (غرين، ٢٠١٧). وفي المنظورِ الكلاميّ–الفقهيّ، المعراجُ معجزةٌ وثبوتُه غيرُ موقوفٍ على آليّةٍ طبيعيّة؛ ومن ثَمَّ فأيُّ قراءةٍ تفترضُ لحصولِه «ضرورةً طبيعيّةً» تتجاوزُ ضوابطَ الإعجازِ العلميّ وتمسُّ بحرمةِ الغيب (المصلح، ٢٠١٨). ومع ذلك، تُبيّنُ المقارباتُ البينيّةُ المعاصرةُ أنَّ «انضغاطَ المسار» و«اختلافَ إدراكِ الزمن» في الرِّحلة يمكنُ عدُّهما من جنسِ الظواهرِ التي تصفُها النسبيّةُ على مستوى النمذجةِ النظريّة—لا أكثر؛ أي «محاذاةٌ مفهوميّةٌ» لتقريبِ الفهم، لا تحويلُ المعجزةِ إلى ثمرةٍ محتومةٍ لآليّةٍ طبيعيّة (السنجري، ٢٠١٨).

– الصِّلةُ بنظريّاتِ الثقوبِ الدوديّة

في النسبيّةِ العامّة تُتيحُ بعضُ الحلولِ الهندسيّة من «جسرِ أينشتاين–روزن» إلى النماذجِ «القابلةِ للعبور» وصلَ منطقتين بعيدتين في الزمكان عبرَ نفقٍ هندسيّ؛ فإذا استقرّت الفُوَّهتان وصَلُحَ العبورُ، أمكنَ بتحقيقِ «اللّاتزامُن» بينهما (مثلًا باتّساعِ الزمنِ الحركيّ أو الثقاليّ) تهيئةُ وضعٍ يكونُ فيه العبورُ من الفُوَّهة «الأصغر سنًّا» والخروجُ من «الأكبر سنًّا» بما يُوحي «بإزاحةٍ زمنيّةٍ فعّالة» (غرين، ٢٠١٧). وفي السرديّاتِ الحدسيّةِ لهذه الفكرة، يُقال «سُلَّمُ اختصارٍ»: أي إذا أمكنَ(مع حفظِ بُنيةِ النفق) تقليلُ المسافةِ الفعّالة بين حدثينِ تقليلًا شديدًا، أمكنَ تصويرُ «قطعِ مسافةٍ بالغةِ الطولِ في مُدّةٍ وجيزة» مفهوميًّا، من غيرِ ادّعاءٍ بتحقّقِ ذلك فنيًّا (غرين، ٢٠١٧)ومع هذا، تُظهرُ التحليلاتُ شبهُ الكلاسيكيّة أنَّ تقلّباتِ الحقولِ الكموميّةِ في جوارِ فُوَّهةِ الثقبِ الدوديّ تميلُ بالطاقاتِ إلى قيمٍ عاليةٍ جدًّا، وتُنشئُ «توتّر–طاقةٍ فعّالًا» يُغلِقُ النفقَ عمليًّا؛ وهذا الاعتبار مع «فرضيةِ حمايةِ التسلسلِ الزمنيّ» هو السببُ الرئيسُ في ريبِ الفيزيائيّين في إمكانِ «انتهاكِ السببيّة» عبر الأنفاق (هوكينغ، ٢٠١٨). وحتى على المستوى الكلاسيكيّ، فإنَّ «شروطَ الطاقة» في النسبيّةِ العامّة تقتضي أنَّ استقرارَ ثقبٍ دوديٍّ قابلٍ للعبور يتعلّقُ بوجودِ «كثافةِ طاقةٍ سلبيّةٍ فعّالة»؛ وهي ظاهرةٌ لا تُصاغُ إلّا في نُظُمٍ كموميّةٍ مخصوصةٍ وعلى مقاييسَ متناهيةِ الصِّغر وبمدًى محدود، وهي بعيدةٌ جدًّا عن «الهندسةِ على مقاييسَ كبرى» (غرين، ٢٠١٧). وعليه، فربطُ المعراجِ مباشرةً «رحلةٍ عبرَ ثقبٍ دوديٍّ مستقرّ» هو(علميًّا)حدسيّ، و(من جهةِ منهجِ الإعجاز)غيرُ مُسوَّغ؛ والصوابُ إنّما هو تشبيهٌ مفهوميّ: لو وُجِدَت في العالم مساراتُ «اختصار»، لكان تصوّرُ «العبورِ الفائقِ السُّرعة» أسهلَ حدسًا، غيرَ أنّ علّةَ المعجزةِ ليست محصورةً في مثلِ تلك الآليّات (الطيّار، ٢٠١٨). وبالمِنهجِ نفسِه، يرى بعضُ الكُتّابِ المسلمين أنّ التقاريرَ الدينيّة عن «سُرعةِ البُراق» أو «توالي المراتبِ السريع» في الرِّحلة لا تعدو قابليّةَ التقريبِ إلى أشكالٍ مخصوصةٍ من هندسةِ الزمكان، من غير تحويلِها إلى ثقوبٍ دوديّة، ولا افتراضِ «ضرورةٍ طبيعيّةٍ» لأصلِ الواقعة (النجّار، ٢٠١٩).

– مفهوم «الزمنِ النسبيّ» في القرآن

تُشيرُ الآياتُ القرآنيّة إلى اختلافِ مقاييسِ الزمن، مثل: «وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ» (الحج/٤٧)، و«تُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ» (السجدة/٥)، و«فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ» (المعارج/٤). وقد قرأها المفسّرونَ الكلاسيكيّون على أنّها ناظرةٌ إلى اختلافِ الساحاتِ والنِّسَب؛ فعبارةُ «عِندَ رَبِّكَ» تُفصِحُ عن نوعٍ آخرَ من النِّسبةِ والميزان، في مقابلةِ «مِمَّا تَعُدُّونَ» (ما تحصونه أنتم)، بما يُومئُ إلى الفارقِ بين «الحساباتِ الإنسانيّة» و«النِّسَبِ الربّانيّة/الملكوتيّة» (الرازي، ١٤٢٠هـ). وفي الإطارِ التفسيريّ نفسِه، لا ينحصرُ معنى «اليوم» في العربيّة بوحدةِ الأربعِ والعشرينَ ساعةً الأرضيّة، بل قد يدلُّ على «فترة/مدّة»؛ ولا سيّما إذا اقترنَ بقيودٍ مثل «عند ربّك» أو «مقداره»، فإنّه يُوحي بمقياسٍ مُغاير (الرازي، ١٤٢٠هـ)ومن هذا المنظور، وإنْ جازَ القولُ إنَّ هذه الآياتِ على مستوى «المحاذاة الدلاليّة» تُعرِّفُ الذهنَ المعاصر بفكرةِ «عدمِ تساوي مقاييسِ الزمن باختلافِ الساحات»، فإنَّ تحويلَها إلى «معادلاتِ النسبيّة الفيزيائيّة» منهجيًّا غيرُ سديد، ويؤولُ إلى «الهندسةِ العكسيّة للنصّ» (المصلح، ٢٠١٨). وهذه القاعدةُ جاريةٌ في التطبيقِ على المعراج أيضًا: فيمكنُ تقريبُ «اختلافِ إدراكِ الزمن في الرِّحلة» بفكرةِ «تفاوتِ المقاييس» أي أنْ لا تتطابقَ التجربةُ الزمنيّةُ لصاحبِ الوحي مع حساباتِ الناظرين الأرضيّة غيرَ أنّ حقيقةَ المعجزةِ تَفوقُ البُنى الطبيعيّةَ المعروفة، ولا ينبغي للتفسيرِ الدينيّ أنْ يُحاصَرَ في نماذجَ علميّةٍ متغيّرة (السيوطي، ٢٠٠٥). وعلى هذا الأساس، فإنَّ القراءةَ المسؤولةَ لآياتِ «النِّسَبِ الزمنيّة» لا تنفي العلمَ ولا تُطبّعُ الغيب؛ بل تدعو إلى تمييزٍ دقيقٍ بين «بيانِ الوحي في اختلافِ الساحات» و«الصياغاتِ العلميّةِ القابلةِ للاختبار»، ليقومَ حوارٌ رصينٌ بين المجالَيْن، ويغدو الفهمُ المعاصرُ للمعراج وفيًّا للنصّ، وفي الوقتِ نفسِه أيسرَ تصوّرًا لذهنِ القارئ العلميّ اليوم (المصلح، ٢٠١٨).

٦. رؤيةُ الإسلامِ للسفرِ عبرَ الزمن

– المواقفُ الفقهيّةُ والكلاميّة

في منطقِ علمِ الكلامِ الإسلاميّ، المعجزةُ خَرقٌ للعادات بقدرةِ الله، ووقوعُها غيرُ موقوفٍ على الآليّاتِ الطبيعيّة؛ والمعراجُ على هذا الأصل «آيةُ قدرةٍ وتصَرُّفٌ رَبّانيٌّ في عالَم العادة». ومن جهةِ النصوص، بيّنَ القرآنُ أصلَ الإسراء، وفصّلتِ الرواياتُ الصحيحةُ وقائعَ المعراج؛ ومقصودُ الخطابِ هو إثباتُ الحدثِ ودلالاتُه الإيمانيّةُ والتربويّةُ، لا تقديمُ تقريرٍ فنّيٍّ عن «الكيفيّةِ الفيزيائيّة» للواقعة (السيوطي، ٢٠٠٥). وقد نصَّ جمهورُ أهلِ السنّة على «المعراجِ الجسديّ في اليقظة»، وجعلوا قولَ «الروحيّ/المناميّ» شاذًّا أو ناظرًا إلى بعضِ الوقائعِ السابقةِ على «المعراجِ الأكبر» (ابن كثير، ١٩٩٨). كما قامَ المحدّثون بتمحيصِ الأسانيدِ وتمييزِ الطُّرُقِ المعتمدة، وقضَوا بكفايةِ الأدلّةِ في إثباتِ أصلِ المعراج (الألباني، ٢٠٠٨).وفي الإطارِ التوحيديّ، نسبةُ المعجزةِ إلى العللِ الطبيعيّة من قبيلِ «تعطيلِ العادةِ الجارية»؛ أي إنَّ القانونَ المعتادَ يُقهَرُ بإرادةِ الله دونَ نفيِ أصلِ العِلّيّةِ الإلهيّةِ الحكيمة (آل الشيخ). ومن الوجهةِ التربويّةِ والتشريعيّة، يحتلُّ المعراجُ (بترسيخِ مقامِ القُرب وبتشريعِ الصلواتِ الخمسِ نهائيًّا) مكانةً محوريّةً في السلوكِ الإيمانيّ (حَوّى، ١٩٩٥)ومن منظورِ المنهجيّةِ الدينيّة، فإنَّ «تقريبَ الفهمِ العلميّ» للواقعةِ جائزٌ ما دامَ تحتَ سلطانِ النصّ وفي حدودِ الغيب، ولا يَؤولُ إلى

«تحويلِ علّةِ المعجزةِ إلى آليّةٍ طبيعيّة» (المصلح، ٢٠١٨). وبالمِقياسِ نفسِهِ، ينبغي وزنُ كلِّ روايةٍ تفصيليّةٍ عن منازلِ المعراجِ ومشاهداتِه بميزانِ صحّةِ السندِ والمتن، وتنقيتُها من الإسرائيلياتِ والغرائب (الألباني، ٢٠٠٨).

– التبايُنُ عن المفهومِ العلميّ «السَّفر عبر الزمن»

في علمِ الفيزياء، يُعالَج «السفر عبر الزمن» بوصفِه مفهومًا مُنمذجًا قابلًا للاختبار/الدحض: فإطارا النسبيّة الخاصّة والعامّة (برياضياتٍ دقيقةٍ وشواهدَ تجريبيّة) يتنبّآن ويقيسان «اتّساعَ الزمن الحركي/الثقالي»، ثم تُبحثُ الإمكاناتُ الهندسيّةُ الخاصّة (كالأنفاق/الثقوب الدوديّة) على أنها فرضيّاتٌ مشروطة. غايةُ العلم هنا تفسيرُ الكيفيّةِ الطبيعيّة للظواهر، وكلُّ ادّعاءٍ يُعرَضُ للاختبار والحساب ولنتائجِه العِلّيّة–المنطقيّة (هوكينغ، ٢٠١٨). وفي هذا الأفق، تُبيّنُ القراءةُ الفنيّة متى وكيف «تتباطأُ ساعةُ الراصدِ المتحرّك» أو «الساعةُ في حقلٍ ثقاليٍّ قويّ» وما التصحيحاتُ المُلزِمة؛ فمن نظامِ تحديدِ المواقع العالميّ (GPS) إلى الساعاتِ الذرّيّة، تعمل الأنظمةُ على أساسِ التمييز بين «الزمنِ الخاصّ» و«زمنِ الإحداثيّات» (غرين، ٢٠١٧). ومع ذلك، حين يتعلّق الأمرُ بـ«العودة إلى الماضي»، نفسُ الأدبيّاتِ الفيزيائيّة تُنبّهُ إلى القيود: شروطُ الطاقة، ولااستقراريّةُ الأنفاق، والمفارقاتُ السببيّة تجعلُ تحقُّقَ تلك السيناريوهاتِ تجريبيًّا (في الوضعِ الراهن)غيرَ معلومٍ ومحلَّ ريبٍ (ديفيز، ٢٠١٨)أمّا المعراجُ ففي منطقِ الإيمانِ واقعةٌ معجزيّة؛ ثبوتُها يقومُ على النصوصِ الوحيانيّةِ والنقلِ المعتبر، وغايتُها الهدايةُ وتثبيتُ النبوّة والتعليمُ الروحيّ، لا «عرضٌ هندسيٌّ» للبشر. ويُفسَّرُ معناها ورسالتُها في ساحاتِ الإيمان والأخلاق والسلوك، ونسبتُها إلى العللِ الطبيعيّة من جنسِ «خَرْقِ العادة بقدرةِ الله»، لا نتيجةً محتومةً لآليّاتٍ فيزيائيّة (سيد قطب، ٢٠١٨). من هنا فإنَّ كلَّ مُجاورةٍ مفهوميّةٍ بين «اختلافِ إدراكِ الزمنِ في الرِّحلة» و«اتّساعِ الزمن» ليست إلا تشاكُلًا تفسيريًّا لتقريبِ الفهمِ إلى ذهنِ القارئ المعاصر؛ أمّا إذا انقلبتْ «مُماثلةً تامّة»، خُفِّضَ النصُّ الدينيُّ وأُسيءَ استعمالُ العلم (البار، ٢٠١٧)وفوقَ اختلافِ الغايةِ والمنهج، يختلفُ نطاقُ الاعتبار: فالعلمُ الذي يُوزَنُ بمعيارِ التكرارِ والقياس لا يستطيعُ (وحده) أنْ يَفصِلَ في حقيقةِ واقعةٍ فريدةٍ غيبيّة؛ كما أنَّ لسانَ الوحيِ (غايتُه الهداية) ليس مُؤهَّلًا لتعليمِ معادلاتٍ نظريّةٍ طبيعيّة. لذا ينبغي لكلِّ محاولةِ وصلٍ بين المجالَيْن التزامُ ضوابطِ منهجيّةِ الإعجازِ العلميّ: تمييزٌ واضحٌ بين «التفسير العلميّ» و«دعوى الإعجاز»، واجتنابُ الجَزْميّة، وألّا يُحصرَ معنى الآياتِ في نموذجٍ علميٍّ قد يتبدّل (المصلح، ٢٠١٨). ومن جهةٍ أخرى، يلزمُ الحذرُ من «الهندسةِ العكسيّةِ للنصّ»: أيْ فرضُ الإطارِ العلميّ المُفضَّل على الآية أو إعادةُ صياغةِ لسانِها لإثباتِ نظريّة؛ فهذا مرفوضٌ منهجيًّا ومُجحِفٌ بحقِّ العلمِ والنصّ معًا (الطيّار، ٢٠١٨)وخلاصةُ القول: يُمكّنُنا العلمُ من فَهْمِ الكيفيّاتِ الطبيعيّة للزمن وقياسِ اختلافِ معدّلاتِه بين الأطرِ بدقّة، ويعلّمُنا الإيمانُ قراءةَ المعجزةِ في أفقِ «الآيةِ الإلهيّة». والنِّسبةُ الصحيحةُ بينهما هي «تقريبُ الفهمِ والحوارُ الرصين»، لا مُماثلةُ المعراجِ بآليّةٍ فيزيائيّةٍ بعينِها، ولا الاستغناءُ عن معارفِ العصر؛ وهذا هو صراطُ الاعتدال الذي تُصِرُّ عليه القراءاتُ البينيّةُ المسؤولة (النجّار، ٢٠١٩).

– الحدودُ والضوابطُ الشرعيّة

١. الالتزامُ بظاهرِ النصّ وتعدُّدُ الدلالات. الأصلُ في التفسيرِ التقيُّدُ بظاهرِ لسانِ الآية/الحديث واجتنابُ التأويلاتِ البعيدة؛ كما لا يجوزُ «حصرُ» معنى النصّ في صياغةٍ علميّةٍ متغيّرة . (القطان، ٢٠٠٠).

٢. التفريقُ بين «التفسيرِ العلميّ» و«دعوى الإعجازِ العلميّ». التفسيرُ العلميّ هو إيرادُ معنى ينسجمُ مع ظاهرِ الآية وقرائنِها اللغويّة؛ أمّا دعوى الإعجاز فتلزيمٌ قطعيٌّ بين الآية ونظريّةٍ علميّة، وهي غيرُ مقبولةٍ إلّا في المواضعِ البيّنة (المصلح، ٢٠١٨).

٣. شرطُ الاحتياط وعدمُ الجَزْميّة. كلُّ مُقارَبةٍ علميّةٍ يجب أن تكونَ مؤقّتةً ومشروطةً وألّا تُعارِضَ القطعيّاتِ العقديّة/الشرعيّة؛ وغايتُها «تقريبُ الفهم ودفعُ الشبهة» لا إحداثُ تكاليفَ اعتقاديّةٍ جديدة (الطيّار، ٢٠١٨).

٤. التحقيقُ الحديثيّ. في نقلِ التفاصيل ينبغي الاقتصارُ على الطرقِ الصحيحةِ والمتونِ السليمة، واجتنابُ المرسَلِ والضعيف (الألباني، ٢٠٠٨).

٥. الحذرُ من «الهندسةِ العكسيّة» للنصّ. لا يجوزُ فرضُ النظريّةِ العلميّةِ الرائجة على النصّ أو «إعادةُ صياغةِ» ظاهرِ الآية انتصارًا لنموذجٍ بعينه (الدهلوي، ١٩٨٦).

٦. تفريقُ ساحاتِ المعرفة. العلمُ يعتني بنظامِ عالَمِ الشهادة، أمّا الدينُ فيتكلّمُ (مع الشهادة) عن الغيبِ والوحيِ والهداية؛ لذا فعدمُ إمكانِ الاختبارِ التجريبيّ للمعراج ليس «نقصًا» في الدين، بل يُبيِّنُ ضمنَ العقلِ الدينيّ (الرازي، ١٤٢٠هـ).

٧. المكانةُ الأخلاقيّةُ–التشريعيّة للواقعة. حتى مع الاستعانةِ بالتقريباتِ العلميّة ينبغي أن تبقى الغايةُ الأخلاقيّة–التشريعيّة للمعراج (تقويةُ اليقين، تشريعُ الصلواتِ الخمس، والتربيةُ النبويّة) هي المحور (حَوّى، ١٩٩٥).

٨. حدودُ التعبُّد في أمورِ الغيب. مواضعُ كـ«سدرةِ المنتهى» و«حجابِ النور» و«البيتِ المعمور» من عالَمِ الغيب؛ والتشبيهاتُ العلميّةُ فيها أدواتٌ للتصويرِ الذهنيّ لا لاكتشافِ العلّة (السيوطي، ٢٠٠٥).

تكملةٌ كلاميّة: نسبةُ العلّيّة وخرقُ العادة

يبينُ علمُ الكلامِ السنّي—بالتفريقِ بين «العِلّةِ العاديّة» و«القدرةِ الإلهيّة»—أنّ قوانينَ الطبيعة «سُنّةٌ جارية» لله تعالى، وتعليقَها في مواضعِ الإعجاز ليس نفيًا للحكمةِ أو للنظامِ السببيّ، بل «استثناءٌ حكيم» في خدمةِ غايةِ النبوّة (آل الشيخ، د.ت). ومن ثَمَّ (لو استُعينَ ببعضِ مفاهيمِ الفيزياء (كالزمنِ المُتَّسِع) على جهةِ التقريب) تبقى حقيقةُ المعجزةِ خارجَ إطارِ العللِ الطبيعيّة (المصلح، ٢٠١٨).

٧. الدلالاتُ والتطبيقاتُ المستقبليّة

– أثرُ اكتشافِ النسبيّة في فهمِ المعجزة

حوّلَ اكتشافُ النسبيّة التصوّرَ التقليديَّ «الزمنِ المطلق» إلى «زمكانٍ ديناميّ»، وأظهرَ أنَّ معدّلَ جريانِ الزمن تابعٌ للسرعةِ وللحقلِ الثقاليّ. هذه النقلةُ توفّرُ(لقراءةٍ عقلانيّةٍ لتقاريرِ «انضغاطِ الزمن» في المعراج)«إطارًا مفهوميًّا» يُحسّنُ تقريبَ الفهم، من غير أن يُختزَل سببُ المعجزةِ في قانونٍ طبيعيّ (هوكينغ، ٢٠١٨). وفي السياقِ نفسِه، سعتِ الدراساتُ البينيّةُ المعاصرةُ (لا سيّما في القراءةِ العلميّةِ للإسراءِ والمعراج) إلى بيانِ أنَّ «اختلافَ إدراكِ الزمن» و«قطعَ مراحلَ طويلةٍ في مدّةٍ وجيزة» يتوازى دلاليًّا مع فكرةِ اتّساعِ الزمن وهندسةِ الزمكان (السنجري، ٢٠١٨). ومحصّلةُ هذا التوازي الدلاليّ هي(قبل كلّ شيء) إيضاحُ الصورةِ لذهنِ القارئ المعاصر: نفهمُ المعجزةَ بوصفِها «آيةً إلهيّة»، وندركُ في الوقتِ نفسِه أنَّ العلمَ الحديث يقرُّ بإمكانِ اختلافِ معدّلاتِ الزمن ونمذجتِه (غرين، ٢٠١٧). ومع ذلك، تُصرِّحُ ضوابطُ الإعجازِ العلميّ بأنَّ أيَّ توظيفٍ للنظريّات يجب أن يكون «غيرَ جزميّ، مشروطًا، وغيرَ حصريّ»؛ أيْ ألّا نُحاصِرَ المعنى في نموذجٍ علميٍّ واحد، مع حفظِ حدِّ «الغيب» (المصلح، ٢٠١٨). ومن منظورِ «القراءةِ العلميّةِ للنصّ»، فالعلاقةُ بين العلمِ والوحي علاقةُ تقريبٍ وتبيينٍ لا مساواة؛ فالعلمُ يُعينُ على فهمٍ أفضل، لكنه لا يَحلُّ محلَّ السببِ المتعالِي للمعجزة (البار، ٢٠١٧).

– إمكانُ «السفرِ عبر الزمن» في المستقبل

فيزيائيًّا، فإنَّ «السفرَ إلى المستقبل» على أساسِ اتّساعِ الزمنِ الحركيّ/الثقاليّ ممكنٌ من حيثُ الأصل، وهو مُثبَتٌ اليوم في مقاييسَ صغيرةٍ ضمنَ التقاناتِ الدقيقة (مزامنةُ الساعاتِ الذرّية وأنظمةِ الملاحة). ومع بلوغِ سرعاتٍ قريبةٍ من الضوئيّة أو الإقامةِ طويلًا في حقولٍ ثقاليّةٍ قويّة، يمكنُ توليدُ فوارقَ بارزةٍ بين «زمنِ المسافر» و«زمنِ المقيمين» (هوكينغ، ٢٠١٨). أمّا «السفرُ إلى الماضي» فيواجهُ قيودًا جسيمة: فمع أنّ بُنى الأنفاقِ الزمكانيّة تظهرُ في بعضِ حلولِ النسبيّة، فإنَّ استقرارَها وقابليّتَها للعبور رهينانِ بـ«شروطِ طاقةٍ غيرِ مألوفة» وكبحِ التقلّباتِ الكموميّة؛ وهو—بحسبِ المعطياتِ الراهنة—أمرٌ حدسيٌّ وغيرُ هندسيّ (غرين، ٢٠١٧). وإلى جانبِ المعضلاتِ الفنيّة، فإنَّ طبيعةَ «السببيّة» نفسَها و«مفارقاتِ العودة» (كالحلقاتِ السببيّة) تُشيرُ إلى أنَّ العالَمَ الفيزيائيّ قد يمتلكُ آليّاتٍ لـ«حمايةِ التسلسلِ الزمنيّ» تمنعُ/تُربكُ مناطقَ انتهاكِ السببيّة (ديفيز، ٢٠١٨).

وبناءً على ذلك تكون خريطةُ الإمكانات كما يلي:

• التقدّمُ الزمنيّ (إلى مستقبلِ الآخرين): ممكنٌ من حيثُ الأصل، بل قابلٌ للقياس اليوم على مقاييسَ صغيرة (هوكينغ، ٢٠١٨).

• العودةُ إلى الماضي: مطروحةٌ على مستوى النظريّاتِ الهندسيّة، لكنها تواجهُ قيودَ الطاقة، ولااستقراريّةَ الأنفاق، وحمايةَ السببيّة (غرين، ٢٠١٧).

ومن المنظور الدينيّ، حتى لو تحقّقتْ مستقبلًا صورٌ جديدةٌ من «التقدّم الزمنيّ»، فإنّ ذلك لا يُغيّرُ شيئًا من ماهيّة المعجزة؛ فالمعراج بوصفه «آيةً إلهيّة» يبقى فوقَ حتميّةِ الآليّات الطبيعيّة، وأيُّ تماثُلٍ تامٍّ مع تقنياتٍ بشريّةٍ غيرُ سائغ (سيد قطب، ٢٠١٨).

– دلالاتُ الإعجازِ العلميّ

على مستوى لاهوتِ العلم، يحملُ هذا البحثُ دلالاتٍ استراتيجيّة عدّة:

أ) تعزيزُ البيانِ العقلانيّ للإيمان: إنَّ إظهارَ أنَّ علمَ اليوم يقرُّ باختلافِ مقاييسِ الزمن وإمكانِ تباينِ معدّلاتِه يرفعُ الاستبعادَ ويُمَهِّدُ لحوارٍ عقلانيٍّ مع القارئِ المعاصر—شريطةَ حفظِ حدِّ المعجزة (النجّار، ٢٠١٩).

ب) التمييزُ بين التفسيرِ العلميّ ودعوى الإعجاز: حيثما لوحَ تشابهٌ مفهوميٌّ بين النصِّ والنظريّة وجبَ الحديثُ بلسان «التقريب» لا «التلازمِ القطعيّ»؛ ولا تُبرَّرُ دعوى الإعجاز إلّا إذا تطابقت القرائنُ الدلاليّةُ للنصِّ والمعاييرُ العلميّةُ تطابُقًا قاطعًا، وحتى حينئذٍ لا ينبغي حصرُ معنى الآية في نموذجٍ واحد (المصلح، ٢٠١٨).

ج) الحذرُ من الهندسةِ العكسيّةِ للنصّ: لا يجوزُ إعادةُ صوغِ ظاهرِ الآية أو انتقاءُ الشواهدِ لنُصرةِ نموذجٍ علميٍّ مُفضَّل؛ بل يبقى النصُّ هو المحورُ والنظريّةُ أداةً للشرحِ والتقريب (الطيّار، ٢٠١٨).

د) ترقيةُ المعرفةِ البينيّة: إنَّ إدخالَ مفاهيمِ الفيزياء (كاتّساعِ الزمن وانحناءِ الزمكان) إلى الأوساطِ الدينيّة إدخالًا رصينًا يُتيحُ التعلّمَ الدقيقَ والحوارَ مع العلوم من غيرِ الإخلالِ بمكانةِ النصّ والغيب (البار، ٢٠١٧).

ه) حدودٌ أخلاقيّة–دعويّة: ينبغي اجتنابُ «تضخيمِ الدعاوى»؛ فتحويلُ كلِّ مشابهةٍ مفهوميّةٍ إلى «معجزةٍ علميّة» يَستنزفُ ثقةَ المتلقّي سريعًا، وقد يفتحُ (عند تغيُّرِ النظريّات) بابَ انتكاسٍ استدلاليّ (المصلح، ٢٠١٨).

و) إلهامٌ لأبحاثٍ لاحقة: إنَّ اقتراحَ أُطُرٍ قابلةٍ للقياس لـ«التوازي الدلاليّ» بين النصّ والنظريّة مثلَ التمييزِ الدقيقِ بين «الوصفِ الإدراكيّ للزمن» و«زمنِ الإحداثيّات» يمكنُ أن يكونَ موضوعَ رسائلَ ومقالاتٍ لاحقة (غرين، ٢٠١٧).

٨. الخلاصة والتوصيات

أظهرتْ هذه الدراسة أنّ العلاقةَ بين حادثة الإسراءِ والمعراج ومفهوم «السفر عبر الزمن» قابلةٌ للتبيين ضمن أفقِ «التوازي الدلالي»: فإنَّ تقريرَ «رحلةٍ مكثَّفةٍ في ليلةٍ واحدة»، وقطعَ مراتبِ السماوات، ومشاهداتِ «سدرةِ المنتهى»، إذا وُضِعتْ بإزاءِ الصياغاتِ المقرَّرة في فيزياء الزمن، تُجلّي للفهمِ المعاصر إمكانَ «اختلافِ تجربةِ الزمن» وتصوّرَ «المساراتِ القصيرةِ الفعّالة»، من غيرِ أن تُختزلَ ماهيّةُ المعجزة في آليّةٍ طبيعيّة. وبهذا لا يُحاصَرُ التفسيرُ الدينيُّ في نظريّاتٍ متبدِّلة، ولا يُعمَّمُ العلمُ إلى مجالِ الغيب؛ بل يقومُ حوارٌ رصينٌ يعرفُ فيه كلٌّ من نصِّ الوحي والنماذجِ العلميّة موضعَه ويسهمُ في إيضاحِ أفقِ الدلالةِ للواقعة.تتبدّى آفاقُ البحثِ اللاحقةِ في محورَيْن رئيسين: أوّلًا، إعادةُ قراءةٍ لسانيّةٍ لرواياتِ المعراج مع تمييزٍ دقيقٍ بين العناصرِ القابلةِ لـ«التقريب العلميّ» وتلك المختصّةِ بساحةِ الغيب؛ ثانيًا، وضعُ نماذجَ مفهوميّةٍ للفصلِ بين «الزمنِ الإدراكي» و«زمنِ الإحداثيات» كي تُتاحَ مقارنةٌ منهجيّةٌ مع مفاهيمٍ مثل اتّساعِ الزمن من غيرِ فرضِ أعباءٍ إثباتيّةٍ غيرِ مشروعةٍ على النصّ. وإلى جانبِ ذلك، يُفيدُ توظيفُ مباحثِ فلسفةِ العلم حول العلّيّة، وسهمِ الزمن، وحدودِ المعرفة في بناءِ إطارٍ مُحكَمٍ لشرحِ نسبةِ «خرقِ العادة» إلى «السننِ الإلهيّة».وبناءً على هذا الاستخلاص، تُقترَحُ التوصياتُ التطبيقيّةُ الآتية في مساراتِ التعليمِ والاتصالِ وصناعةِ السياسات: أوّلًا، تصميمُ مقرّراتٍ وورشٍ مشتركةٍ بين أقسامِ اللاهوت والفيزياء بعنوان «الزمنُ والمعراج» لرفعِ الكفاءةِ البينيّة ولتمرينِ التمايُز بين «التفسير العلميّ» و«دعوى الإعجاز». ثانيًا، فتحُ مجالِ الحوارِ بين الأديان/الثقافات بالارتكازِ إلى فكرةِ «تفاوتِ مقاييسِ الزمن» جسرًا معرفيًّا لشرحِ «المعجزةِ بوصفِها آية» لغيرِ المسلمين أو غيرِ المتديّنين. ثالثًا، إعدادُ أدلّةٍ بحثيّةٍ في المؤسّساتِ الدينيّة لتقويمِ دعاوى الإعجاز وتحديدِ معاييرَ واضحةٍ لـ«الشواهد المقبولة وغير المقبولة» في وجوهِ التطابق، اتّقاءً لتضخّمِ الدعاوى غيرِ القابلةِ للإثبات. وفي مجالِ التوعيةِ العامّة، يلزمُ بيانُ «التقدّم الزمنيّ» (اتّساع الزمن) وتمييزُه عن «العودة إلى الماضي» كي لا تتكوَّنَ توقّعاتٌ تقنيّةٌ غيرُ واقعيّة. وأخيرًا، يُقترَحُ إنشاءُ «بنكِ شواهد» يضمُّ الآياتِ المتعلّقةَ بالنِّسَبِ الزمنيّةِ والرواياتِ المعراجيّة مع مذكّراتٍ منهجيّةٍ مرافِقة، ليُستأنفَ البحثُ اللاحقُ بدقّةٍ وتناسُقٍ أعلى. ثمرةُ هذه الاستراتيجيات أنْ يحافظَ الفهمُ المعاصرُ للمعراج على وفائه لحقيقةِ الإيمان بالواقعة، وأنْ يغدو (مع الاستخدامِ المسؤولِ للسانِ العلم) أقربَ إلى ذهنيةِ القارئِ العلميّ اليوم وأوثقَ اعتمادًا.

المراجع

١)القرآن الكريم.

٢)آل الشيخ، صالح. شرح العقيدة الطحاوية. د.ت.

٣)الألباني، ناصر الدين. الإسراء والمعراج وذكر أحاديثهما وتخريجها وبيان صحيحها. عمّان: المكتبة الإسلامية، ٢٠٠٨.

٤)ابن كثير، إسماعيل بن عمر. تفسير القرآن العظيم. بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٩٩٨.

٥)الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب. إعجاز القرآن. تحقيق: السيد أحمد صقر. مصر: دار المعارف، الطبعة الخامسة، ١٩٩٧.

٦)البار، محمد علي. قراءة النص العلمي في القرآن والسنة: دراسة تطبيقية في الإعجاز العلمي. جدة: دار المنارة، ٢٠١٧.

٧)حَوّى، سعيد. الأساس في التفسير. القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، ١٩٩٥.

٨)الدهلوي، ولي الله. الفوز الكبير في أصول التفسير. القاهرة: دار الصحوة، الطبعة الثانية، ١٩٨٦.

٩)ديفيز، بول. حول الزمن: دراسة في طبيعة الزمن والكون. ترجمة محمد فتحي خضر. الكويت: عالم المعرفة، ٢٠١٨.

١٠)الرازي، فخر الدين. مفاتيح الغيب (التفسير الكبير). بيروت: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ.

١١)السنجري، أحمد إبراهيم. الإسراء والمعراج: رؤية علمية في ضوء النظرية النسبية. الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠١٨.

١٢)السيوطي، جلال الدين. الإسراء والمعراج. القاهرة: دار الحديث، ٢٠٠٥.
١٣)الشاعر، عبد الرحمن. النظرية النسبية وأبعادها في فهم المعجزات: دراسة تحليلية. عمّان: دار النفائس، ٢٠١٩.
١٤)الطبري، محمد بن جرير. جامع البيان عن تأويل آي القرآن. تحقيق: عبد الله التركي. القاهرة: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، ٢٠٠١.
١٥)الطيّار، مساعد بن سليمان. الإعجاز العلمي إلى أين؟ الدمام: دار ابن الجوزي، الطبعة الثانية، ٢٠١٨.
١٦)القَطّان، مناع. مباحث في علوم القرآن. الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٠.
١٧)قطب، سيد. في ظلال القرآن. ٢٠١٨.
١٨)المصلح، عبد الله. الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: تاريخه وضوابطه. جدة: الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، ٢٠١٨.
١٩)النجار، زغلول راغب. الإعجاز العلمي في السنة النبوية: رحلة الإسراء والمعراج – رؤية علمية. القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر، ٢٠١٩.
٢٠)غرين، برايان. نسيج الكون: الفضاء والزمن ونسيج الواقع. ترجمة أدهم السمان. بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠١٧.
٢١)هوكينغ، ستيفن. موجز تاريخ الزمن: من الانفجار الكبير حتى الثقوب السوداء. ترجمة مصطفى إبراهيم فهمي. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٨.